مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 4 (رت 73) السنة: 2023

نقد بنية الخطاب الاستشراقي عند إدوارد سعيد

Criticising the structure of orientalism discourse of Eduard Said

علاقي عبد اللطيف[1]
جامعة باجي مختار عنابة الجزائر
allaguiabdelatif@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/12/6 القبول 2023/05/03 النشر على الخط 2023/06/05
Received 16/12/2022 Accepted 03/05/2023 Published online 05/06/2023

ملخص:

تهدف هذه الدراسة بالأساس إلى اكتناه المشروع النقدي لادوارد سعيد بوصفه أحد أهم المحاولات النقدية للمدونة الاستشراقية وأكثرها إثارة للجدل، خاصة من خلال كتابيه "الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية" حيث عمل على تفكيك بنية الخطاب الاستشراقي .

إن ما يميز نقد سعيد للاستشراق هو أنه حاول أن يفكك بنيته بذات الأدوات المعرفية التي يتكئ عليها هذا الخطاب وبعيدا عن المحاكمات الإيديولوجية والأحكام المسبقة التي عادة ما صاحبت كل محاولة للكتابة عن هذه المؤسسة المرتبطة بالمشروع الامبريالي الغربي.

مستعينا بما أتاحته الطفرة المعرفية لعلوم الإنسان و المجتمع و ما وفرته من أدوات منهجية في نقد المعرفة

و مستفيدا من موقعه الأكاديمي كناقد للأدب الانجليزي ، وظف سعيد فكرة الخطاب كما بلورها ميشال فوكو وكذا الاضاءات التي قدمها هذا الأخير حول علاقة السلطة بالمعرفة لنقد مجمل الخطاب الاستشراقي ،كما افاد سعيد أيضا من كتابات غرامشي حول الهيمنة الثقافية خاصة من خلال مؤلفه "كراسات السجن " .

تتحدد الإشكالية الأساسية لهذه الدراسة في السؤال التالي :كيف يتداخل المعرفي و السياسي في الخطاب الاستشراقي ؟ و ماهي أهم محددات هذا الخطاب من منظور ادوارد سعيد؟

كلمات مفتاحية: إدوارد سعيد، الاستشراق، الخطاب، النقد

Abstract:

This study mainly aims at understanding the critical project of Edward Said as one of the most important and controversial attempts to criticize the Orientalist blog, notably in his books "Orientalism" and "Culture and Imperialism", where he worked on dismantling the structure of the Orientalist Discourse.

What distinguishes Said's critique of Orientalism is that he tried to dismantle its structure with the same epistemological tools which this discourse relies on, far from the ideological trials and prejudices that usually accompanied every attempt in writing about this institution which is associated with the Western imperialist project.

With the help of the cognitive boom to human sciences and society, and the methodological tools which it provided in criticizing knowledge and benefiting from his academic position as a critic of English literature, Said employed the idea of discourse as it was articulated by Michel Foucault, as well as the insights which were provided by the latter on the relationship of power and knowledge to criticize the entirety of Orientalist discourse. Said also benefited from Gramsci's writings on Cultural hegemony, especially from his book "Prison Notebooks".

So, how does the cognitive and the political merged in the discourse of orientalism ? and what are the déterminants of this discourse?

Keywords: Edward said, orientalizm, discourse, Criticism.

[1]– المؤلّف المرسل: عبد اللطيف علاقي البريد الإلكتروني: **allaguiabdelatif@gmail.com**

1.مقدمة:

يقدم الاستشراق عموما على أنه معرفة غربية عن الشرق، كما يصعب من الناحية المنهجية تحديد بداية تاريخية لهذه المعرفة بشكل دقيق. إن أولى الإشكالات التي تطرح في هذا السياق هي: ما الذي نعنيه بكلمة "شرق"، هل هو الشرق المكاني بالنسبة لما يعرف بالغرب الأوروبي أو اللاتيني؟ فتشمل هذه الكلمة بهذا الاعتبار الشرق الأوسط والأقصى أي بلاد المشرق العربي والصين والهند والشعوب الآسيوية الأخرى، أم هو الشرق الثقافي الذي يتمثل أساسا بالنسبة للمخيال الغربي المعاصر في الثقافة العربية والبلدان التي شملتها الظاهرة الإسلامية بشكل عام.

إن أحد مرادفات كلمة "مستشرق" في الأوساط الأكاديمية الغربية هي كلمة "مستعرب" وهذا هروبا من الحمولات الإيديولوجية غير المحببة لكلمة "مستشرق" التي أصبحت سيئة السمعة في العقود الأخيرة.

إن الاستعاضة عن كلمة "مستشرق" بلفظ "مستعرب" ليست فقط آلية تخفّي يستعملها الخطاب الاستشراقي من أجل توسيع دائرة التلقي لدى العرب والمسلمين وإنما هي أيضا تعبير عن تحول في اهتمامات هذا الخطاب ليتركز أساسا على الدراسات الخاصة بالعالم العربي والإسلامي في الشرق الكبير المتنوع ثقافيا ودينيا ولغويا.

بالعودة إلى تاريخ الاستشراق فقد أعطيت تواريخ مختلفة لبدايته، فمن المؤرخين من يعتبر فتوحات الإسكندر الأكبر في الشرق في القرن الرابع قبل الميلاد بداية المعرفة الغربية بالشرق. ومنهم من يعتبر ظهور الإسلام والصراع مع الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي بمثابة بداية فعلية لهذه المعرفة. ومنهم من يرجعها إلى احتكاك المسلمين بالغرب إبان الحروب الصليبية أو من خلال البعثات العلمية الغربية للأندلس منطلقا فعليا للاستشراق إذ ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم سنة 1143م [1] كما أن هناك من الدارسين من يعتبر تأسيس كراسي اللغة العربية واللغات الشرقية عموما في الجامعات الأوروبية حجر الأساس لانطلاق الدراسات الاستشراقية.

إن هذه الاختلافات المذكورة على عجل في تحديد بداية هذه المعرفة مرده بالأساس إلى المفاهيم الملتبسة للاستشراق في أذهان هؤلاء الدارسين و اختلافهم في تقييم الدوافع الموضوعية لنشوئه، غير أن أكثر التواريخ موضوعية هي التي ترجع البداية الفعلية للاستشراق إلى القرن التاسع عشر حيث تمايزت الدراسات الاستشراقية عن الكتابات الدينية عن الشرق فظهر مجموعة من العلماء والأكاديميين الذين كرّسوا جهودهم لدراسة الشرق وفق مناهج علمية معروفة قائمة بالأساس على الفيلولوجيا وتحقيق النصوص والمخطوطات التاريخية تحقيقا علميا هذا من جهة، أما من جهة أخرى فارتباط هذه الدراسات بالحملات الاستعمارية للدول والإمبراطوريات الأوروبية والغربية عموما في أفريقيا وآسيا بالخصوص حيث مثّل الاستشراق بهذا الوصف الواجهة الثقافية والمعرفية للآلة التوسعية الغربية.

لقد شهد القرن التاسع عشر زخما متصاعدا في حركة الاستشراق وكانت "العلاقات السياسية والاقتصادية للقوى الكبرى مع الدول الإسلامية العامل الأكبر وراء الاهتمام باللغة العربية" [2]

2. تلقي الخطاب الاستشراقي في الأوساط الفكرية العربية:

لقد كان تلقي الخطاب الاستشراقي متباينا في الأوساط الفكرية العربية وكانت ردود الفعل في ذات الأوساط مدفوعة غالبا بالخلفيات الإيديولوجية للمثقفين العرب، إذ تراوحت بين "الإعجاب الذي يصل أحيانا إلى حد الانبهار"[1] وبين الرفض المطلق لكل "المنتج الاستشراقي " مهما اصطبغ بالصبغة العلمية[2].

[1]- يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، تعريب عمر العالم دار المدار الإسلامي، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، بيروت، ط 2، 2008، ص 13.

[2]- يوهان فوك: المرجع السابق، ص 13.

1.2 من المحاكمة الأيديولوجية إلى النقد العلمي :

لقد مثّل التلقي العربي والإسلامي للخطاب الاستشراقي بهذا الوصف انعكاسا مباشرا لذات الخطاب، فكما تتعدد الخلفيات الفكرية والايديولوجية والدينية للمستشرقين وتختلف آراؤهم بخصوص العربية والإسلام والنظرة إلى الآخر عموما تتعدد ردود الأفعال في الجهة المقابلة تبعا للخلفيات نفسها.

مثّل التيّار الرافض للاستشراق مجموعة من علماء الدين التقليديين والمثقفين المرتبطين بالخطاب الإسلامي المحافظ، إذ رأوا فيه محاولة غربية غير بريئة للنيل من الإسلام والتشكيك في ثوابته واعتبروه امتدادا للحملات التبشيرية على العالم الإسلامي. وقد كان لهذا الموقف من الاستشراق ما يبرره من الناحية التاريخية نظرا لخصوصية العلاقة بين العالم الاسلامي و العالم المسيحي خاصة إبان العصور الوسطى حيث اتسمت "بطبيعة صراعية غذتها إرادات الهيمنة و المماحكات الدينية "[3]

أما التيّار المعجب بالاستشراق فقد مثّله في الغالب المثقفون العرب والمسلمين الذين تتلمذوا بشكل مباشر على المستشرقين أو تلقوا على الأقل تعليما وفق النمط الغربي حيث تكاد تكون صلتهم بالمرجعيات الفكرية التقليدية منعدمة.

سنة 1963م شهد نقد الاستشراق تغييّرا نوعيا افتتحه المفكر المصري أنور عبد الملك من خلال مقال في مجلة"DIOGENE" بعنوان: "الاستشراق في أزمة" حيث كشف من خلال هذا المقال عن الترابط الوظيفي بين الاستشراق وبين القوى الاستعمارية الغربية. أحدث هذا المقال ضجة كبيرة في الأوساط الأكاديمية الغربية التي سارعت إلى اتهام أنور عبد الملك بالتحامل على الغرب وشككت في حيادية الكاتب وموضوعيته العلمية.

لقد كان من السهل وضع الكتابات النقدية السابقة للاستشراق في خانة النقد الإيديولوجي ورمي أصحابه بالتعصب العقدي أما مقال عبد الملك فقد كان يقف على أسس منهجية يصعب تجاهلها.

2.2 سعيد والمنعرج النقدي للاستشراق :

ثم يأتي الدور على الناقد الأمريكي ذي الأصل الفلسطيني إدوارد سعيد ليواصل مسيرة النقد العلمي للاستشراق ولكن هذه المرة بصورة أعمق نظرا لخلفية سعيد الثقافية واللغوية وموقعه الأكاديمي.

لقد جاء كتاب سعيد "الاستشراق" ليضع كل الخطاب الاستشراقي على محك النقد العلمي ويكشف علاقات القوى التي تحكم هذا الخطاب برمته متسلحا في ذلك بأحدث المقولات المعرفية والأدوات المنهجية الغربية مستفيدا من الطفرة التي شهدتها علوم الإنسان والمجتمع بدء من النصف الثاني من القرن العشرين.

دون المبالغة في وصف ردود الفعل الغربية على كتاب سعيد "الاستشراق" الصادر سنة 1978م ودون أن نبخس الكتابات النقدية السابقة على الاستشراق حقها فقد "كانت متداولة بالفعل وبدأت في تحقيق تغيير في دراسات الشرق الأوسط الامريكية والبريطانية وفي غيرها أيضا" [4]، لكن التأثير الكبير لكتاب سعيد ووصوله إلى جمهور أوسع في الأوساط الأكاديمية الغربية والعربية على السواء يجعله بمثابة قنبلة أو صدمة كهربائية كما وصفه أحد المهتمين بالشأن النقدي للخطاب الاستشراق[5]

---

[1]– علي النملة: كنه الاستشراق: المفهوم، الأهداف والارتباطات، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط 3، 2011، ص17.

[2]– المرجع نفسه والصفحة.

[3]- عبد الناصر قاسمي : الاستشراق عند إدوارد سعيد ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر سنة 2008 2009 ، ص 19.

[4]– زكاريلوكمان: تاريخ الاستشراق وسياساته، الصراع على تفسير الشرق الأوسط، تعريب شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2007، ص 297.

[5]– المرجع نفسه والصفحة.

ما الذي يميز كتاب سعيد عن الاستشراق؟ ما الذي يؤطر أطروحته ويجعلها تتيح له كل هذا الانتشار خاصة في الأوساط الأكاديمية الغربية؟ يجيبنا "صبحي حديدي" في مقدمة كتاب "تعقيبات على الاستشراق" بأن مؤلف سعيد مثل نقلة نوعية وحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة من خلال أداء الخطاب الاستشراقي لوظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية للسياسات الاستعمارية مما ساهم في توفير مناخ لصعود الامبريالية[1]

لقد مثّل نقد سعيد للاستشراق امتدادا لتلك الدراسات التي اعتبرت السلطة علاقة قوى وحاولت تحليل

تمظهراتها المختلفة وعلاقتها بإنتاج الخطاب مثلما هو الحال بالنسبة للفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو التي ألهمت كتاباته في الموضوع كثيرا من مفكري النصف الثاني من القرن الماضي.

إن توجه سعيد نحو نقد بنية الخطاب الاستشراقي وتحليل المقولات الثاوية فيه بدلا من المحاكمة الإيديولوجية كما كان شائعا في كل المدونة النقدية للاستشراق، كل هذا أعطى قيمة مضافة لكتاباته.

فعلى غرار كتاب "الاستشراق" ذائع الصيت في الأوساط الغربية والعربية على السواء، هناك كتاب آخر لسعيد

لا يقل من ناحية القيمة العلمية والنقدية عن الكتاب الأول، وهو كتاب "الثقافة والإمبريالية" حيث واصل فيه سعيد الدفاع عن أطروحته بخصوص الاستشراق بوصفه الوجه الثقافي للإمبريالية السياسية الغربية، وإن لم يلق هذا الكتاب القدر الذي يستحقه من الانتشار بالنظر لقيمته المنهجية والمعرفية.

3. محددات الخطاب الاستشراقي عند إدوارد سعيد:

3. 1. في مفهوم الاستشراق:

بما أن نقد سعيد موجه للاستشراق فهو يحاول في بداية كتابه إعطاء تعريف له، وهو يميز بين "ثلاثة تعريفات وتصورات ممكنة عن الاستشراق"[2] تبدو هذه التعريفات مترابطة ومتداخلة في كثير من الأحيان، أما المفهوم الأول فهو مفهوم أكاديمي وبالتالي فالمستشرق هو كل من يعمل بالكتابة أو التدريس أو إجراء بحوث عن الشرق في مختلف التخصصات[3]. والاستشراق بهذا الوصف لا يعدو أن يكون مبحثا أكاديميا يتخذ من الشرق موضوعا للدراسة، غير أن سعيد يستدرك على هذا التعريف باعتبار تغير تسمية هذا المبحث من الاستشراق إلى الدراسات الشرقية أو مصطلح "دراسة المناطق" وهذا التغير مدفوع على الأغلب بعمومية وغموض مصطلح الاستشراق من جهة وبحمولته الاستعلائية من جهة أخرى نظرا لاستعماله في سياق اتصال الاستشراق الكلاسيكي بالدوائر الاستعمارية الغربية.

يقدم سعيد تعريفا ثانيا للاستشراق يراه أعم وأشمل من التعريف الأول لكنه يرتبط بالتقاليد الأكاديمية ذاتها فيقول بالاعتبار الثاني هو: "أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى الشرق وما يسمى في معظم الأحيان الغرب"[4].

لقد ولّد الاستشراق الأكاديمي قوالب للفكر تقوم على تمايز نهائي بين الشرق والغرب سواء من الناحية الأنطولوجية أو من الناحية الابيستيمولوجية فللشرق ماهية جوهرية تختلف عن الغرب ويستتبع هذا من الناحية المعرفية أن دراسة الشرق تستدعي أسسا معرفية وأدوات منهجية غير تلك المعتمدة في دراسة الغرب.

---

[1]- إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1996، ص 26.

[2]- فيصل: الاستشراق في منظور إدوارد سعيد، دراسة تحليلية نقدية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، المجلد 12، العدد 1، ص 194.

[3]- إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2006، ص 44.

[4]- المصدر نفسه، ص 45.

إن هذه التقاليد أصبحت على قدر من الرسوخ بحيث يصعب تجاوزها خلال أي عملية كتابة أو بحث عن الشرق، فلم يعد "في وسع أحد يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا مرتبطا به أن يتخلص من القيود التي فرضها الاستشراق"[1].

ربما يكون الاستشراق بهذا المعنى الثاني هو الموضوع الأساس لكتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد فقد خصصه لتفكيك المقولات المؤسسة للخطاب الاستشراقي.

أما المعنى الثالث الذي يعطيه سعيد للاستشراق فهو: "المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق"[2] وهنا يتحدث سعيد عن مؤسسة غربية تاريخية ضمن نطاق تاريخي محدد وهو نهاية القرن الثامن عشر، وهي المؤسسة التي أخذت على عاتقها مهمة التعامل مع الشرق، وأما ما يعنيه سعيد بكلمة "تعامل" هنا فيشمل التحدث عن الشرق وباسمه وتمثيله ووصفه واعتماد الآراء فيما يخصه، وأخيرا تحديد آليات السيطرة عليه.

2.3. الاستشراق بوصفه خطابا:

لا يخفي إدوارد سعيد استفادته من كتابات ميشال فوكو عن "الخطاب" في تحليله لبنية الاستشراق، كما يصر على أن فهمنا للثقافة الغربية وكيفية انبثاق المؤسسة الاستشراقية بوصفها أداة للهيمنة على الشرق لن يكون ممكنا دون توظيف مفهوم الخطاب كما بلوره فوكو خاصة في كتابيه: "أركيولوجيا المعرفة"، و"المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن."

إن ما يعني سعيد في فكرة الخطاب هو كيفية تشكل خطاب الاستشراق ومن ثم تحوله إلى أداة للهيمنة على الشرق" إذ إن العملية الأساسية لإعادة إنتاج السلطة تكون عن طريق الخطاب[3]من هنا تتحدد أهمية إلمامنا بمفهوم "الخطاب" في فهم المشروع النقدي للاستشراق الذي اختطه إدوارد سعيد.

تتلخص فكرة الخطاب كما بلورها فوكو –دون الوقوع في فخ التفصيلات التقنية المتعلقة بالمصطلح– في أننا وعكس ما يزعمه فلاسفة الحداثة ومفكري التنوير غير قادرين على الوصول إلى حقائق الأشياء أو إلى تكوين معرفة حقيقية أو موضوعية عن العالم مهما كانت الأدوات المنهجية التي نستعملها أو المقدمات المنطقية التي ننطلق منها. إن "ما نعتبره حقيقة هو في الواقع دائما من إنتاج طريقة معينة في تصوير أو تمثيل الواقع أي خطاب معين"[4]إن هذا الخطاب هو ما يشكل رؤيتنا للموضوع وفق الأسس المنطقية التي تؤسسه ووفق مصادراته المعرفية بشأن الحقيقة.

إن المعرفة الموضوعية بالأشياء وبالعالم على السواء غير متاحة وفق هذا المنظور لأن أنماط الخطاب المختلفة تنتج لنا مواضيع مختلفة بحسب زوايا الرؤية التي نعالج من خلالها الموضوع ووفق منظوريتنا للأشياء.

وإذا كان الخطاب بهذا الوصف "هو محاولة منهجية لتحليل مختلف الموضوعات التاريخية والثقافية"[5]فقد كان من الطبيعي توظيف إدوارد سعيد لهذا المفهوم في دراسته للاستشراق بوصفه موضوعا تاريخيا وثقافيا في آن واحد، فما الذي يحكم الخطاب الاستشراقي إذا؟ وعلى أي قواعد منهجية يتأسس؟ وما هي مقدماته المنطقية الصريحة أو الضمنية التي تؤطره؟ هذا ما حاول سعيد في كتاباته عن الاستشراق أن يحدده بدقة، فإذا كان كل خطاب "يخلق فعليا ذات الموضوع الذي يدرسه"[6]فما هو الشرق الذي أنتجه الخطاب الاستشراقي؟ وما هي التمثيلات

---

[1]– محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، القاهرة، ط 2، 1989، ص 19.

[2]– إدوارد سعيد: المرجع نفسه، ص 45.

[3]– توين فان دايك: الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2014، ص 45.

[4]–زكاريلوكمان: المرجع السابق، ص 299.

[5]– الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2000، ص 10.

[6]–زكاريلوكمان: المرجع السابق، ص 299.

والبدائل التي يقدمها عن الشرق الواقعي؟ كيف يتم اختراع الشرق في المدونة الاستشراقية وسجنه ضمن صور وقوالب جامدة تجعله عصيا عن التطور والتغير ومقاوما لكل أشكال المشروطية التاريخية؟.

3. 3.تمثيل الشرق:

لا نتحدث هنا عن شرق واقعي من الناحية الجغرافية أو التاريخية إنما الحديث عن شرق أنتجته المؤسسة الاستشراقية من خلال خطاب الهيمنة الذي يخترق كل المنتج المعرفي الاستشراقي، وإنه لمن المثير أيضا أن الغرب من خلال ذات الخطاب قد احتكر حق التحدث باسم الشرق وصادر حقه في أن يعبر عن نفسه، إن الشرق –بما هو شرق– غير قادر على فعل ذلك وبالتالي فالمؤسسة الاستشراقية هي التي تتولى الحديث باسمه، إنها تمارس شكلا من أشكال الوصاية الفكرية لتخرج لنا كل تلك الصور النمطية عن الرجل الشرقي المتسلط والشهواني واللاعقلاني والمنفعل وغير القادر على التركيب، ولتعطينا أيضا ذلك الشرق الأسطوري والسحري والعجائبي.

إن سعيد وكما يؤكد على لا تاريخية الصور والتمثيلات والادعاءات التي يقدمها الاستشراق عن الشرق فإنه يؤكد من ناحية أخرى على أن هذه الصور ليست وليدة خيال المستشرقين وحده بل إن الاستشراق ككل هو معرفة تؤطرها السلطة التي تتحكم بمجمل الخطاب الاستشراقي. فالسلطة بما هي علاقة قوى كما يعرفها فوكو تؤطر هذا الخطاب وتنتجه ليؤدي وظيفته بوصفه "وسيلة إخضاع ثقافية" لصالح القوى الإمبريالية، وهذا ما أداه بالفعل من خلال علاقته الوظيفية بالدوائر الاستعمارية الغربية.

إن الشرق كما الغرب، وخلافا للمنطق الجوهري الذي يحكم كل المدونة الاستشراقية ويسجن من خلاله الشرقي في صور ثابتة ونهائية، هو شرق تاريخي متطور ومتغير ومحكوم بمشروطية الزمان والمكان، وإن تلك الصورة الموحدة للشرق تخفي تنوعا لا يحصى لشعوب وثقافات وتقاليد متباينة مما يجعل الحديث عن شرق واحد مخالفا للمنطق والواقع على السواء.

4. سعيد والماركسيين العرب:

لقد كان للخلخلة النقدية التي أحدثها سعيد في بنية الخطاب الاستشراقي ردود فعل عنيفة في بعض الأحيان من قبل من لم يستسيغوا محاكمته لمجمل المنتج المعرفي الاستشراقي، وكانت هذه الردود مفهومة خاصة في سياقها الغربي من قبل دعاة الاستشراق الجديد أمثال برنارد لويس الذي يزعجه كثيرا توظيف سعيد للعلاقة الوظيفية بين الاستشراق المعرفي والامبريالية التوسعية الغربية قديما أو حديثا بوصفه الممثل الأبرز لهذا النوع من التضامن الوظيفي. فهو الذي قدم نفسه دوما على أنه الخبير الأول في شؤون الشرق الأوسط لدى الدوائر السياسية الغربية وهو عراب مشروع الشرق الأوسط الجديد، وبالتالي الوجه المعرفي والثقافي للمشروع الأمريكي في الشرق. وتأسيسا على كل هذا فقد كانت سجالات برنارد لويس وإدوارد سعيد مبررة ومفهومة إلى حد بعيد.

لكن نقدا من نوع آخر طال مشروع سعيد في نقد الاستشراق وهو ما كان من الماركسيين العرب أمثال: مهدي عامل، وصادق جلال العظم، وإعجاز أحمد، وغيرهم. إذ خصص جلال العظم مقالته: "الاستشراق والاستشراق معكوسا" والتي طبعت ضمن كتابه "ذهنية التحريم" بالكامل لتحليل أطروحة سعيد حول الاستشراق والرد عليها.

أما مهدي عامل فقد كان رده أسخى من رد جلال العظم، إذ أفرد له كتاب "هل القلب للشرق والعقل للغرب: ماركس في استشراق إدوارد سعيد" ونافح بكل ما يستطيع عن كارل ماركس الذي لم يوفره سعيد في نقده للاستشراق.

لا يمكننا في هذا المقال استقصاء كل الملاحظات النقدية التي أبداها الكاتبان بخصوص مشروع سعيد، في حين يمكننا بدلا من ذلك رصد أهم هذه الملاحظات من حيث الوجاهة العلمية وأبعدها عن السجال الإيديولوجي لكلا الطرفين، نقصد بالسجال الإيديولوجي هنا المجابهة

الواضحة بين الإيديولوجية الماركسية التي يمثلها مهدي عامل، وصادق جلال العظم، في مقابل ما أسماه مهدي عامل نفسه بالإيديولوجية القومية التي ينحاز إليها إدوارد سعيد.

4. 1ماركس وسطوة الخطاب الماركسي

قبل أن نورد هذه التعقيبات النقدية ينبغي علينا أن نعرف على وجه الدقة ما الذي أثار حفيظة الماركسيين العرب في استشراق سعيد. في الواقع ودون الذهاب بعيدا في عرض صراع التأويلات بخصوص الخطاب الاستشراقي، فإن ما أثار هؤلاء هو ما أورده سعيد نفسه بخصوص منظر الماركسية الأول "كارل ماركس" في تحليله للاستعمار البريطاني للهند والذي بدلا من أن ينحاز، بحكم طبيعة الفكر، إلى الهنود المسحوقين من طرف الإمبراطورية البريطانية راح يبرر همجيتها الاستعمارية، إن ما حدث هو أن ماركس رغم عدائه الظاهر للرأسمالية الغربية لم يستطع الافلات من الثقل الثقافي للمؤسسة الاستشراقية المرتبطة بها ومن مقولاتها الجاهزة عن الشرق، لقد شكل التراث الاستشراقي وتقاليده "مكتبة جبارة لا يستطيع أحد حتى ماركس نفسه أن يتمرد عليها "[1]فرغم التعاطف العفوي وغير المحسوب الذي يتورط فيه ماركس إزاء "الآلاف من المنظمات الاجتماعية النشطة والوقورة وغير المؤذية وهي تتعرض للانحلال والذوبان في الوحدات التي تتشكل منها الأمر الذي يلقي بها في بحار الأحزان"[2] إلا أنه يعود ويبرر للاستعمار البريطاني استغلاله البشع للمجتمع الهندي ومقدراته ليعبر عن ضآلة ما يتعرض له الهنود من فقدان لحضارتهم القديمة ووسائل رزقهم لأن هذه المجتمعات القروية غير المضرة في الظاهر شكلت الأساس المتين للاستبداد الشرقي[3]معتبرا إياها، أي بريطانيا، الوسيلة التي تحقق الصيرورة الموضوعية للجدل التاريخي وتؤدي بذلك رسالتها بإخراج الهنود من بلاهة الحقول و"إرساء الأسس المادية لمجتمع غربي في آسيا" [4]. إن كل جرائم بريطانيا تغدو هامشية في مقابل الدور التاريخي الذي تلعبه للقضاء على الاستبداد الشرقي وتثقيف الهند وإرساء القيم المادية للمجتمع الغربي.

ولكن من أين استقى ماركس كل هذه التعميمات والصور الجماعية عن الشرق؟ كيف تحول هذا المفكر الثوري المتضامن من حيث المبدأ مع الطبقات المسحوقة، والمزعزع لكل مقولات الفكر الجامدة، إلى مجرد مبرر لأعتى الإمبراطوريات الاستعمارية ومكرر لأكثر المقولات تسطيحا ورومانسية عن الشرق؟ ويتحول معه التحليل التاريخي القائم على الجدل المادي إلى مجرد ترديد لأشعار غوته عن الشرق. من هنا يبين سعيد مدى تغلغل مقولات الخطاب الاستشراقي وسطوته في المخيال الغربي وتحكمه في الوعي الجمعي لمفكريه سواء داخل المنظومة الاستشراقية أو خارجها.

2.4 دفاع مهدي عامل عن ماركس :

يجادل مهدي عامل في كتابه المذكور بأن النص الذي ذكره سعيد عن ماركس مجتزأ ومقطوع عن سياقه ويخصص مجمل الكتاب للدفاع عن ماركس بخلفية إيديولوجية واضحة جاعلا من نقد ما يسميه منطق الفكر القومي المهمة الأساسية لعمله فيه "ونقد هذا المنطق من الفكر هو بالضبط موضوع النقد في نقد التأويل السعيدي أو القراءة السعيدية لفكر ماركس"[5]، لكن ما لا يخبرنا به مهدي عامل هو مصدر تعميمات تعميمات ماركس عن الشرق، وحتى إن كان التاريخ قد أسند بشكل غير واع دورا تاريخيا لبريطانيا في تطوير الهند والقضاء على نظمها

[1]– إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ص 257.

[2]– المصدر نفسه، ص 252.

[3]–المصدر نفسه، ص 253.

[4]– المصدر نفسه، ص 254.

[5]– مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب، ماركس في استشراق إدوارد سعيد، دار الفارابي، بيروت، ص 22.

الاجتماعية البالية التي تؤبد الطغيان الشرقي و تشرعنه فلماذا كل هذا الكم من اللامبالاة تجاه معاناة ملايين البشر المسحوقين في مواجهة هذا القدر التاريخي؟ هل مصدر هذا هو نظرة دونية للشرقيين عموما بوصفهم كائنات أقل قيمة وبالتالي لا يجب الانتباه لمعاناتهم؟ و "كيف أن المعادلة الأخلاقية لما تفقده آسيا بسبب الحكم الاستعماري البريطاني الذي يدينه تنحرف فترتد إلى فكرة التفاوت القديمة بين الشرق والغرب"[1].

4 .3 صادق جلال العظم و الاستشراق المعكوس :

أما صادق جلال العظم ومن خلال مقالته: "الاستشراق والاستشراق معكوسا" التي أصبحت فيما بعد فصلا من كتابه "ذهنية التحريم" فيسجل بموضوعية الجدل الذي رافق صدور كتاب سعيد عن الاستشراق في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، والذي وصلت أصداؤه إلى العالم العربي والإسلامي. بعد تلخيص موجز للكتاب ودون الانخراط في دفاع مباشر عن ماركس يؤكد جلال العظم أن سعيد "قام بتعرية ادعاءات الاستشراق الثقافي–الأكاديمي بالحياد العلمي والاستقلال الفكري والموضوعية المتجردة بكشف العلاقات الوثيقة التي تربطه بمؤسسة الاستشراق "[2]وبعد أن يتبنى تمييز سعيد للاستشراق بوصفه مرتبط بالتوسع الاستعماري للإمبراطوريات الغربية عن الاستشراق كمجال للبحث الأكاديمي موضوعه الشرق، وبعد أن يتبنى أيضا دعوى سعيد أن مقولات الاستشراق حولت الشرق بشعوبه وثقافاته وأديانه إلى كيانات جوهرانية ثابتة متمايزة أنطولوجيا ومعرفيا عن الغرب مكرسة بذلك التفوق الأصلي للغرب وثقافته على الشرق فيما سماه جلال العظم ميتافيزيقا الاستشراق، بعد كل ما ذكرنا يلاحظ هذا الأخير أن سعيد وقع في تناقض واضح، فمن جهة هو يربط الاستشراق بصعود الإمبريالية الغربية وتوسعها في الشرق فيجعل منه بذلك الوجه الثقافي لهذه الإمبريالية في القرن الثامن عشر، ومن جهة أخرى هو يعود بالاستشراق إلى "هوميروس وإسكيلوسويوريبيدس ودانتي"[3] والذي يعني جلال العظم من كل هذا أن التفسير الأول لبداية الاستشراق يتسق مع تحليل المادية التاريخية والتي تعطي الأولوية للعامل الاقتصادي على حساب العامل الفكري أو الثقافي، فيبدو الاستشراق الأكاديمي من خلال هذا التفسير استجابة طبيعية لصيرورة تاريخية هي صعود البورجوازية التجارية في القرن الثامن عشر، بينما التحليل الثاني فهو يسقط – حسب جلال العظم دائما– في فخ التفسير المثالي للتاريخ بجعل الآراء والتصورات التي يعطيها فلاسفة الغرب ومفكروه عن الشرق هي المؤثر في الحملات الاستعمارية الغربية على الشرق.

إن هذا التفسير المثالي يؤكد على استمرارية في مقولات العقل الغربي عن الشرق منذ هوميروس حتى برنارد لويس، وهو بذلك يمارس نفس ميتافيزيقا الاستشراق ولكن بشكل معكوس وبالتالي "فالنتيجة المنطقية البعيدة لهذا الاتجاه هي العودة بنا من الباب الخلفي إلى أسطورة الطبائع الثابتة التي يريد إدوارد تدميرها بخصائصها الجوهرية التي لا تحول ولا تزول"[4]

وبالتالي فإن أهداف سعيد من نقد بنية الاستشراق وبوقوعها في هذا التفسير المثالي للتاريخ تمضي في اتجاه عكسي لما يريده صاحبها فبدلا من نسف مقولة التمايز الجوهري بين الشرق والغرب، فإنه يؤكدها من حيث لا يشعر، وهذا بسبب عد التزامه بالتحليل التاريخي المحايد الذي يذهب بالأمور إلى نهاياتها ويتعالى على النقد الإيديولوجي الذي يرسم أهدافا مسبقة للنقد.

---

[1]– إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ص 254.

[2]– صادق جلال العظم: ذهنية التحريم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط 2، 2004، ص 18.

[3]– المصدر نفسه، ص 16.

[4]–صادق جلال العظم: المرجع السابق، ص 16.

5. خاتمة:

منذ ظهور الاستشراق و اشتغاله على كل ما له علاقة بالشرق من لغة و عادات و أديان ثم تركيزه على الشرق الإسلامي خصوصا أثار هذا الخطاب ردود أفعال متباينة في الأوساط العربية و الإسلامية .فمنهم من اعتبر هذا الخطاب واجهة ثقافية للحروب الصليبية و امتدادا للحملات التبشيرية التي تهدف لتشكيك المسلمين في معتقداتهم والطعن في مقدساتهم و بالتالي فالواجب على المسلمين رفض كل ما أنتجته هذه المؤسسة الثقافية و نبذ كل المدونة الاستشراقية ظهريا ، ومنهم من وقف على النقيض من ذلك و راح يأخذ أعمال المستشرقين على محمل القبول التام و التسليم الكامل حتى على حساب الانتماء الثقافي و الديني و منهم من حاول التعامل مع هذه الأعمال تعاملا نقديا على أسس علمية متوسلا بذات المكتسبات المعرفية التي شكلت خلفيات هؤلاء الكتاب الفكرية. لقد كانت لحظة إدوارد سعيد نقطة فارقة في تاريخ الكتابات الناقدة للاستشراق، حيث استطاع من خلال مرجعياته الفكرية المتعددة وتحكمه في الأدوات المنهجية التي أتاحتها الطفرة المعرفية التي شهدتها علوم الإنسان والمجتمع في النصف الثاني من القرن العشرين أن يلقي حجرا في مياه الاستشراق الراكدة ويخلخل بنيته المعرفية ويكشف مقولاته الصريحة والضمنية التي يتأسس عليها هذا الخطاب.

لقد بيّن سعيد باقتدار من خلال كتابه "الاستشراق" ومن خلال كتاباته اللاحقة خاصة كتاب "الثقافة والامبريالية" كيف شكّل هذا الخطاب الواجهة الثقافية للامبريالية الغربية وكشف الرهانات السياسية الثاوية فيه.

لقد استفاد سعيد مما كتبه ميشال فوكو عن علاقة السلطة بالمعرفة و ما كتبه أيضا عن مفهوم الخطاب ، ووظف فكرة الهيمنة كما تحدث عنها غرامشي و هذا لقناعته التامة بأن الاستشراق هو الواجهة المعرفية للكولونيالية الغربية ووجد في الاستشراق مجالا اجرائيا لاختبار صلاحية مقولات فوكو و غرامشي . لقد صنعت التمثيلات التي أنتجها الاستشراق في المخيال الغربي شرقا بديلا عن الشرق الواقعي تتحقق فيه مقولات تفوّق الرجل الأبيض والمركزية الغربية، وأصبحت هذه التمثيلات من خلال منطقها الجوهري الذي يصادم منطق الجدلية التاريخية راسخة وبديهية بحيث تتحكم بكل ما يكتب عن الشرق.

إن ما جعل نقد سعيد للاستشراق يأخذ كل هذا الرواج سواء في الدوائر الغربية التي تمثل المتلقي المستهدف بالأساس أو حتى عند المتلقي العربي هو استعماله لذات الأدوات المنهجية الغربية واحتكامه إلى مرجعيات فكرية وازنة في الأوساط الغربية عموما.

رغم تفاني سعيد و استماتته في نقد الاستشراق بما يؤهله ليحظى بقبول واسع في الأوساط الثقافية العربية و الإسلامية إلا أنه لم يسلم من سهام النقد في الوطن العربي خاصة من الماركسيين العرب مدفوعين بتضامنهم الإيديولوجي مع مفكر الماركسية الأكبر "كارل ماركس" الذي اتهمه سعيد بالانسياق اللاواعي وراء المقولات الاستشراقية رغم عدائه الايديولوجي للرأسمالية.

6. قائمة المراجع:

* إدوارد سعيد: الاستشراق،المفاهيم الغربية للشرق،ترجمة محمد عناني،دار رؤية للنشر والتوزيع بيروت، ط 1،2006.
* إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق،ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1،1996.
* توين فان دايك: الخطاب والسلطة،ترجمة غيداء العلي،المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2014.
* زكاري لوكمان:تاريخ الاستشراق وسياساته، الصراع على تفسير الشرق الأوسط،تعريب شريف يونس،دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2007.
* الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو،المجلس الأعلى للثقافة، ط 1،2000.
* صادق جلال العظم: ذهنية التحريم،دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط 2،2004.
* علي النملة: كنه الاستشراق: المفهوم، الأهداف والارتباطات، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط 3، 2011.
* عبد الناصر قاسمي : الاستشراق عند إدوارد سعيد ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر سنة 2008 2009 .
* لكحل فيصل: الاستشراق في منظور إدوارد سعيد، دراسة تحليلية نقدية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 1، 2020.
* محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، القاهرة، ط 2، 1989.
* مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب، ماركس في استشراق إدوارد سعيد، دار الفارابي، بيروت.
* يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، تعريب عمر العالم دار المدار الإسلامي، بيروت، ط 2،2008.